الرد على المحرضين على الانصراف عن الدَّعوة الرهبانية

(بحثٌ روحيٌّ حول الدَّوافع والعَوائق للدّخول في الحياة الرهبانية)

تمهيد: هذا البحث الصغير من القديس توما الأكويني – وهو لا يعرف بوجودِهِ إلا القليلون – لَهُوَ سببٌ حقيقي للفرح بالنسبة للروحانية الكاثوليكية. إنه يهتمّ بالعوائق التي يواجهها عادةً من يَعْقِد العَزم على إتّباع المسيح في الفَقر والعِفّة والطّاعة، أيْ كعُضْوٍ في جَمعيَّة أو عائلة رَهبانية. إذا فحصنا مُؤَثِّرات مرور الزَّمن (عاش القديس توما في القرن الثالث عشر)، نَجد أن الوقائع الأساسية لم تتغيَّر: إنَّ إبليس سيحاول بكلِّ حِيَلِهِ أنْ يَصْرِف أيَّ شخصٍ عن تسليم نفسه لله في الحياة المُكَرَّسة. يستطيع القارئ بدون صعوبةٍ أن يُمَيِّز بين ما هو صالحٌ على الدَّوام وما يَعودُ إلى ظروفٍ تاريخيةٍ حَصْرِيَّةٍ لِزَمنِ القديس توما، وهذا بالتالي يتعلَّق بالأسلوب الخِطابيّ لِذَلك الزَّمن.

الفصل الأوَّل: مقدّمة من المؤلّف

إنَّ غاية الديانة المسيحية تتمثل أساسًا – في رأينا – في صَرْف البَشَر عن الأرضيّات وجعلِهم يَنزِعون إلى الرّوحيَّات. لِذلك فيسوع – مُبدِئُ الإيمان ومُتَمِّمُهُ – عند مجيئِهِ إلى هذا العالم، وَعَظ مؤمنيه بالمِثال وبالكلمة فيما يتعلَّق باحتقار أشياء هذا الدَّهر. بالنسبة لِلمثال – كما سيقول القديس أَغُسطينوس فيما بَعد – فقد استَخَفَّ الرَّبّ يسوع المُتأَنِّس بكلِّ الخَيرات الأرضية كي يعلِّمنا أنْ نَتَرَفَّع عنها، وقد احتمل كلَّ الشرور الأرضية التي كانَ لا بُدَّ أنْ يَتَكَبَّدَها حتَّى لا نبحث عن السعادة في تلك الخيرات ولا نخافَ أنْ نَتْعَسَ بسبب هذه الشّرور. لقد وُلِدَ من أمٍّ كانت قد حَمِلَتْ بدونِ أنْ تَعرف رجلاً وبَقَيت دومًا عذراء، وقد خُطِبَت لعاملٍ، بحيثُ أُبطِلَ ليسوع أيُّ لَقَبٍ شَرَفِيٍّ بحسب الجسد. وُلِدَ في بيت لحم، أصغرِ كل مدنِ يهوذا حَتَّى لا يَفْتَخِر أحدٌ بعَظَمة المدينة الأرضية. اِفتقر مَنْ له كلُّ الأشياء ومَنْ صُنِعَت كلُّها لأجله، حتى لا يتفاخر أحدٌ بالثَّروات الأرضيَّة. لَمْ يُرِد أن يُعْلَن ملكًا على البَشر كي يَدُلَّنا على سبيل التَّواضع. جاعَ مَن يُطعمُ الجميع؛ عَطِش مَن خَلق كلَّ مشروبٍ؛ تَعِب مِن السَّير مَنْ جَعل من نفسِهِ لأجلنا الطريقَ إلى السماء؛ صُلِبَ من أَوْقَف عَذابَنا؛ ماتَ من أقامَ الموتَى.

كُلُّ ذلك علَّمه أيضًا بالكلمة، بما أنَّه منذ بداية بشارته لم يَعِدْ بِأيِّ ملكوتٍ أرضيّ، بل بملكوت السماوات لِلّذين يتوبون.

لقد جعل أساس السعادة الأولى لِتلاميذه في فقر الروح، ووَصفَهُ بِأنَّه طريق الكمال حين يجيب على سؤال الشاب الغني: *«إذا أَرَدتَ أن تكون كاملاً، فاذهب وبِع ما لَكَ وأعطِهِ لِلفقراء، فيكون لك كَنْزٌ في السماء، وتعالَ بعد ذلك لِتتبعني»* (متى ١٩/٢١)؛ وذلك هو الطريق الذي سلكه التلاميذ، كما لو كانوا لا يمتلكون شيئًا في هذا الزمان، في حين أنهم يمتلكون كلَّ شيءٍ بطريقة روحية بِواسطة الفضيلة. إذا كان لديهم الضروريُّ للغذاء والمَلْبَس، فإنهم كانوا يَكتفون.

لكنَّ إبليس – عدوَّ الخلاص للبشر – منذُ الأزمنة البعيدة يَسعى إلى إعاقة التَّطَلُّعات التَّقِيّة والنَّافعة بواسطة البَشر الجسديّين، أعداءِ صليب المسيح المَيَّالين للأرضيّات.

يقول القديس أغسطينوس: «رِجالٌ ونِساءٌ، من كلِّ عُمرٍ وكرامةٍ، قد تَبدَّلت حياتهم بِصَدَد الحياة الأبدية. البعضُ، بعد نبذِهم للخيرات الزمنية، طاروا نحو الإلهية. آخرون يُؤَيّدون فَضائل من يعيشون هكذا، فيُشيدون بهم

بدون أن يَجرُؤُوا على تقليدِهم. لكنْ يُوجَد أيضًا قليلون من المتذمِّرين، المُتعذِّبين بسبب حسدٍ أحمقَ في داخلهم؛ إنهم مَن يبحثون في الكنيسة عن مصالحهم الخاصة، وإنْ كانوا كاثوليكيين ظاهريًّا؛ أوهم يسعون إلى مجدهم مفتخِرين باسم المسيح، بينما هم في الحقيقة هَراطِقة». وفعلاً، قد قام هراطقة كثيرون من هذه النوعية منذ القِدم وفي أماكن مختلفة، وبَرَز منهم، بنفس القدر من التَّجاوز، خوفينيانو في روما وفيخيلانسيو في بلاد الغال (فرنسا)، وهي أماكن كانت قبل ذلك حُرَّة من وَحْش الضَّلال. فالأوَّل ادَّعَى – بخيانة واضحة – مساواة الزَّواج بالبتولية؛ والثاني ساوى اقتناءَ الثروات بالفقر، مُجَرِّدًا بذلك – بقدر ما استطاع – النصائحَ الإنجيلية والرسولية. فإنْ كان حقًّا أنَّ الغِنى يتساوى مع الفقر، والزواج مع البتولية، لكانت دونَ فائدة تلك النصيحة من ربِّنا بأن نمارس الفقر، ولكانت دونَ فائدة أيضًا مشورة الرسول بأن نحافظ على العفة.

إن المعلِّم العظيم القديس إيرونيموس رفض الاثنين بشدّة. لكنْ، كما نقرأ في سفر الرّؤيا، فإنَّ أحد رؤوس الوحش – الذي ظهر وكأنه ميت – قد تعافى من جرحه المميت (رؤيا ١٣/٣ و١٢)، لأنَّ «مُراقبين» (Vigilancios) جُدُد قاموا في بلاد الغال (فرنسا) يحاولون بكل الطرق والدَّهاء أن يُبعِدوا الناس عن ممارسة المشورات. وكانت تعاليمُهم كالآتي:

١) لا يجب على أحد أن يُلزِم نفسه بأن يدخل الحياة الرهبانية أو بممارسة المشورات بدون أن يكون قد اعتاد قبل ذلك على اتّباع الوصايا.

وبهذا كانوا يَمنعون عن طريق الكمال الأطفالَ والخطاةَ والتائبين حديثًا.

٢) لا يجب أن يتبع أحدٌ طريق المشورات بدون أن يكون قد استرشد قَبْلاً من أُناسٍ كثيرين.

لا يخفَى على ذَوي التفكير السليم خُطورة الحاجز الذي يُسبّبه هذا لِمَن يَطلبون الكمال، آخذين في الحِسْبان أنَّ نصائح الناس الجسديّين – وهم كثيرون جدًّا – تُبعِد الناس عن الأمور الروحية أكثر بكثير من أن تجتذبهم إليها.

٣) إنَّ مجهوداتهم تتوجّه قبل كلِّ شيء إلى إعاقة الناس عن أن يلتزموا بالانخراط في الحياة الرهبانية.

بذلك هم يُلغون هذا الالتزام كي لا يستقرّ في النفس لدى تَوَجُّهِها نحو الإقدام على طريق الكمال.

٤) أخيرًا، هم يسعون بشتَّى الطُّرق – دونَ حَرَجٍ منهم – إلى أن يُدَنُّوا من شأنِ كمال الفقر.

هذه النية السَّيِّئة لها سابقة في موقف الفِرْعَوْنَ الذي وَبَّخَ موسى وهارون اللَّذَين أرادا إخراج شعبِ الله من مصر، قائلاً لهما: *«كيفَ أنَّكما، يا موسى وهارون، تُلهِيان الشعب عن واجباتِهِ؟»* ويعلِّق أوريجانوس على ذلك بقوله: «اليوم أيضًا، إذا حاوَلَ موسى وهارون – أيْ صوتٌ نبوئيٌّ وكهنوتيٌّ – استمالة نفسٍ إلى خدمةِ الله والخروج من العالم والتخلّي عن كل الممتلكات وتَكريس الذات لدراسة الشريعة وكلمة الله، فإنَّكم ستسمعون فورًا أصوات أصدقاء فِرعَوْنَ – الذين يفكّرون مثله – تقول: ‹أُنظروا كيف يُغرون الناس ويُفسِدون المراهقين...› تلك كانت بالفعل كلمات فِرعون، وهي نفس ما يردِّدُه اليوم أصدقاؤه». تلك هي النَّصائح التي لا يبتغون بها إلاَّ أن يُعَطّلوا مسيرة من يَنْزِعون إلى الكمال.

كان سليمان يقول إنه لا يُجدي أيُّ نُصحٍ ضد الله. واثقين إذًا في معونته، ومستخدِمين أسلحةً روحية مُؤَكَّدة بقدرة الله، سنسعَى لتفنيد تلك الآراء مع ادّعاءاتها الوقحة بالوقوف ضدّ عِلْمِ الله.

لذلك، ففي كلِّ نقطةٍ من النقاط المعروضة، سنسلك بحسب الترتيب التالي:

- سنعرضُ أوّلاً الأسباب التي يحاولون تأسيس تعليمِهم عليها.
- ثم سنسعَى إلى إثبات سبب وكيفيّة مناقَضة كلٍّ من تلك النُّقَط للحقيقة الموافقة للتَّقْوَى.
- أخيرًا، سنبرهن على أنَّ الأسباب المزعومة لإثبات آرائِهم لا جَدْوَى منها ودونَ معنى.

الفصل الثاني: اعتراضات

«لكي يُقبَل الفَرد في الحياة الرَّهبانية، من الضروري أن يكونَ قد تمَّم الوصايا من قبل». إنَّ معارضينا يريدون أن يُثبِتوا بِطرقٍ عديدة أنه لا يمكن لأحدٍ أن يتَّخذ طريق المشورات بدون أن يكون من قبل قد تَدَرَّب على حفظ الوصايا.

١) عندما أعطى مخلِّصنا مشورة الفقر، وضع شرطًا مُسْبَقًا لِلشَّاب ألا وهو: أنَّه إذا أراد أن يدخل الحياة الأبدية، عليه أن يحفظ الوصايا؛ ثم عندما اعترف بِأنَّه حفظها منذ حداثته، حينئذ أعطاه مشورة الفقر.

يَبدو بالتالي أنَّ حِفظ الوصايا يجب أن يَسبق العمل بالمشورات.

٢) حول الموضع الذي يقول فيه القديس متى (٢٠/٢٨): *«عَلِّموهم أن يحفظوا كلَّ ما أوصيتُكم به»*، يقول القدِّيس بيدا (Beda): «ترتيبٌ معقول. أوّلاً، يجب تعليم التلميذ ثم مَلْءُ نفسِهِ بِأسرار الإيمان، وأخيرًا توصيته بِحِفظ الوصايا». وبالتالي يكون حفظ الوصايا شَرطًا مُسْبقًا للتَّنشِئة على المشورات.

٣) في المزمور ١١٩ (١١٨)/ ١٠٤ نقرأ: *«بوصاياكَ صِرْتُ فهيمًا»*. يقول نصُّ الاعتراض: «لا أقول إنَّني أفهم وصاياك، بل: *بِواسطة وصاياك، لأنه بحِفظها توصَّلَ ذاك الإنسان إلى الحكمة القُصْوَى»*. نفس الاستنتاج.

٤) بالنسبة لِما في المزمور١٣١ (١٣٠)/٢ ب: «كَطِفْلٍ مفطومٍ تَوًّا بين ذِراعَيْ أُمِّهِ»، يقول الاعتراض: «كما أنَّه يمكن تحديد خَمْسُ مراحل في الولادة والتغذية الجسدية، هكذا أيضًا في الروحية. نحنُ من البدءِ يُحمَل بنا في الحَشا؛ ثم تتغَذَّى في داخل المكان الذي نُولَد منه بعد ذلك؛ من ذلك الحين نُحمَل على ذِراعَي أمِّنا ونُطعَم باللبن إلى أن نُفْطَم فنستطيع الجلوس إلى مائدة الأب... إن الكنيسة المقدّسة تَتبع تلك المراحل الخَمسَ. فإنها بالفعل، يوم الأربعاء من الأسبوع الرابع [من الزمن الأربعيني]، ‹تَحْمَلُ› بأبنائِها لأنها في ذلك الوقت، وبواسطة طرد الشيطان وبتعليم العقيدة المسيحية، تكوِّنهم على مبادئ الإيمان الأُولَى. بعد ذلك، يَتَغذّون في حضن الكنيسة، حتى السبت المقدّس الذي يُولدون فيه بالعماد. يلي ذلك أنَّ الكنيسة ترفعهم بين ذراعيها وتُطعِمهم باللبن حتى العنصرة. خلال هذا الزمن، هي لا تَفرِض عليهم أيَّ شيء غيرِ اعتياديّ مثل النُّهوض نِصْفَ الليل والصيام. لكنْ بعد أن يُفطَموا، فإنهم يأخذون في الصيام وفي ممارسة أمورٍ أكثر صعوبةً».

كثيرون يغيّرون هذا الترتيب، مُقَلِّدين بذلك الهرطوقيين والمنشقّين، بحرمان أنفسِهم من اللّبن قبل الأوان، مِمَّا يُعَرِّضهم للدّمار. فإن تطبيق النصائح الإنجيلية لأصعب من ممارسة الوصايا. بالتالي فالالتزام بممارسة النصائح بدون أن تكون الوصايا قد مورِست قبلها، يَعني عَمَلَ الأشياء مقلوبةً والتَّعرّضَ للهرطقة والانشقاق.

٥) إلى نفس الاستنتاج يَصِل الترتيب الذي اتّبعه المخلِّص في المعجزات التي أطعم بها الجُموع: أشبع أوّلاً خمسة آلاف رجلٍ بخمسة أرغفة وسمكتين (متى ١٤)؛ ثم أشبع أربعة آلاف بسبعة أرغفة وسبع سمكات صغيرة (متى ١٥). الخمسة آلاف رجل يرمزون إلى مَنْ يَعرفون، في حياتهم العلمانية وسط العالم، كيف يستخدمون الخيرات الخارجية استخدامًا صحيحًا؛ أما الأربعة آلاف فهم الذين يتخلّون تمامًا عن العالم، مَمنونين (agraciados??) بالأرغفة

السبعة، أيْ بالكمال الإنجيلي، ومتقوّين بالنعمة الروحية. نتيجةً لذلك، فقبل أن ينخرطوا لأجل ممارسة النصائح الإنجيلية – أي المشورات –، من الضروري أن يتغذَّى المرء بتطبيق الوصايا.

٦) القديس إيرونيموس في بدء تعليقه على إنجيل القديس متى يقول: «صفاتٌ أربعة تُوجَد مفصَّلةً في الأناجيل: فرائض، ووصايا، وشهادات، ونماذج(ejemplos-testimonios-mandamientos-preceptos). البِرّ هو الاستجابة للفرائض، والمحبة للوصايا، والإيمان للشهادات، والكمال للنماذج».تنتج عن ذلك ضرورة التَّقدُّم تَدريجيًّا من بِرّ الفرائض إلى كمال النماذج التي يبدو أنها تشير إلى النصائح (المشورات).

٧) يقول القديس غُريغوريوس في كتابه «الأخلاقيات»: «بعد ارتباطه بليئة، مضى يعقوب إلى راحيل، لأن الرّجل الكامل يرتبط أولاً بخصوبة الحياة العملية النشيطة، وبعد ذلك يتّحد بالراحة في حياة المشاهَدة التأمّلية». غير أنَّ حالة الرَّهبنة التي تمارَس فيها النصائح الإنجيلية هي حالة حياةٍ تأمّلية؛ أمَّا الوصايا فهي توجّهنا نحو الحياة العملية. «ها هي الحياة العملية النشيطة»، هكذا يقول تعليقٌ على الفصل ١٩ من القديس متى حيث يأتي ذكر فرائض الشريعة؛ وحول الجملة التالية: *«إن أردتَ أن تكون كاملاً»* يقول: «ها هي الحياة التأمّلية». نرى من ذلك أنه لا يجب الدخول في الحالة الرهبانية قبل أن تكون قد تدرّبتَ على الحياة العملية بتطبيق الوصايا.

٨) في تعليقه على نصٍّ من النبي حزقيال، يقول نفس القديس غريغوريوس: «لا يستطيع أحد أن يتحسّن كثيرًا فجأةً. إنَّ من يتوب يبدأ بممارسة الأشياء الصغيرة لأجل الوصول بعد ذلك إلى الكبيرة». هنا يبدو أنَّ ما يسمّيه بِـ «أشياء صغيرة» هو فرائض الوصايا العَشْر، وبِـ «كبيرة» النصائح التي تنتمي إلى الكمال، بما أنَّ القديس أَغُسطينوس، في بحثه حول العظة على الجبل، يقول: «إنَّ الفرائض المحتَواة في الشريعة تُسَمَّى صغيرة؛ وما قاله المسيح بعد ذلك هو الأشياء الكبيرة». وبالتالي، لا يجب الالتزام بالمساعي الكبيرة – أي بالنصائح – قبل التمرُّس على التي هي أقلّ – أي الوصايا.

٩) يقول القديس غُريغورْيوس (Decretis, dist. XLVIII, cap. Sicut): «كما نعرف، لا يمكن وضع أثقال السقف فوق الحوائط حديثةِ البناء قبل أن تَجِفَّ، لأنَّها إذا استقبلت ذلك الثقل قبل أن تكون قد صارت صَلْبَة فإنَّ كلَّ البناء قد يقع».

١٠) وفي نفس المكان يقول: «مَن أراد أن يتسلَّق جبلاً عاليًّا جدًّا، يُعَرِّض نفسه لِمصيبة كبيرة إذا اتَّخذ الحافة شديدة الإنحدار بدلاً من أن يصعد سالكًا الحافة الأكثر تدرُّجًا». إذًا، يكون من الخطورة أنْ يُحاول المَرْء الوصول إلى الكمال العالي المتمثَّل في المشورات، دون أن يكون قد تدرَّب على الدرجات الأدنى، أيْ الوصايا.

١١) في تَدَرُّج طبيعي، تكون الوصايا سابقة للمشورات بما أنَّها أكثر عمومًا؛ والعكس ليس صحيحًا، أي لا يمكن أن تكون المشورات سابقة للوصايا، إذْ من الممكن حفظ الوصايا دون ممارسة المشورات، ولكن ليس من الممكن ممارسة المشورات بدون حفظ الوصايا...

النتيجة: الميلُ إلى المشورات بدون اكتساب عادة حفظ الوصايا يكون قَلْبًا للنظام السليم.

١٢) إذا سبقت المشورات الوصايا، لا يمكن بِأيَّة وسيلة أن يَخْلُص أولئك الذين لا يمارسون المشورات، بما أنهم بحسب ذلك المبدإ لا يستطيعون ولا حتى حفظ الوصايا.

تلك هي الحُجَج الأكثر انتشارًا لإثبات أنه لا يمكن لأحدٍ أن يعتنق حالة الكمال في الحياة الرهبانية بدون أن يكون قد حَفِظ الوصايا كما لو كانت عادةً لديه.

الفصل الثالث: في حالة الأطفال

بما أننا نناقش هنا مسألة أدبية (moral)، علينا إذًا أن ندرسها جيّدًا لكي نرى ما إذا كان حلُّها يؤدِّي إلى شيءٍ لا يتوافق مع العادات الصالحة، وهو بالضبط ما سنؤكِّده بخصوص تعليم خُصومِنا.

هناك ثلاثة أنواع من البشر غيرِ المعتادين على اتِّباع الوصايا. في المقام الأول: الأطفال، الذين لِصِغَر سنِّهم لا يمكنهم أن يكتسبوا تلك العادة. في المقام الثاني: الذين اهتدوا إلى الإيمان حديثًا، حيث لا يمكن أن تكون قد وُجِدَت أيَّة عادة في الوصايا قبل الإيمان، *لأنَّ كل ما ليس من الإيمان هو خطيئة* (رو ١٤/٢٥)، *وبدون إيمان لا يمكن إرضاءُ الله* (عب ١١/٦). وفي النهاية: الخُطاة الذين قضوا حياتهم في الخطيئة.

التأكيد المُضادّ هو مُخطئٌ تمامًا في كلٍّ من تلك الحالات المذكورة.

الافتراض العكسي لا ينطبق على حالة الأطفال: فكما هو الحال في أية وظيفة أو خدمة، يكتسب الإنسان بدخوله إلى الحياة الرهبانية عادةً راسخةً ومتأصلة في الفضائل الخاصة بتلك الحالة.

مثال القديسين، ومثال سيدنا يسوع المسيح.

لو أن ممارسة الفرائض لا بُدَّ أن تسبق طريق المشورات المقرَّر عند دخول الرَّهبنة، لكان ذلك شيئًا غير منطقيٍّ لا تستطيع الكنيسة أن توافق عليه، وهو أن يُقدِّم الأهل لله أولادَهم وهم في سنٍ صغيرة لكي يتعلموا اتِّباع المشورات قبل أن يتمكَّنوا من ممارسة الوصايا. غير أنَّ عادة الكنيسة – التي تُمَثِّل سلطتُها وزنًا ذا شأن – ومقاطع عديدة أيضًا من الكتاب المقدس تؤكِّدَ عكس ذلك.

بالفعل يقول القديس غُريغوريوس (٢٠، مسألة ١، للفصول المُضافة cap Addidistis): «لو أخضع الوالد أو الوالدة ابنهما أو ابنتهما منذ حداثتهم لِنظام ثابت داخل أحد الأَديرة، هل يكون لِهؤلاء عند وصولهم لِسن البلوغ حقٌّ مشروعٌ أن يخرجوا ويتزوجوا؟ نَرفض إعطاءَ إجابة». بالنسبة للحالة الراهنة، فإن المشكلة المقدَّمَة بهذا الشكل لا تهمّنا كثيرًا – أي إذا كانوا مُجبَرين أم لا على الاستمرار إلى الأبد – لأنه لو كان إتمام الوصايا شرطًا ضروريًا لِممارسة المشورات، لما كان شرعيًّا بأي حال من الأحوال إخضاعُ من لا يَفي بذلك الشرط للتقيُّد بالممارسة المستمرة.

تلك العادة التي تقضي بتكريس الأَحداث لِلرهبنة هي مؤكَّدة، ليس فقط بالعديد من القوانين الكنسية، ولكن أيضًا بمثال القديسين. فالقديس غريغوريوس، في كتابه الثاني من «الحوارات»، يحكي أنَّهم «نُبَلاء وأتقياء روما أخذوا يجتمعون مع بِنيتو الطوباوي ويسلّمونه أولادهم حتى يربّيهم على خدمة الله القدير. في تلك المناسبة، وبتلك النية الصالحة، سلَّم أَفتيخوس ابنه ماوْرو، وتِرْتولو پاتْريسيو ابنه پِلاسيدو. وبفضل طِباعِهِ الممتازة، كان ماوْرو الصغير معاونًا للمعلّم؛ أمَّا پِلاسيدو فكان لا يزال في الطفولة». والقديس بِنيتو نفسُهُ – حسب حكاية القديس غُريغوريوس في كتابه المذكور – حين كان لا يزال طفلاً ترك دراسةَ الأدب ومنزلَه وثروات أبيه، وصار لا يرغب إلا في أن يُرضي الله ويسعى فقط إلى العيش في القداسة.

بل نستطيع اكتشاف أصل تلك العادة لدى الرّسل أنفسِهم. فإن دِيونيزيوس يقول عند ختام «الخدمات الكنسية المتدرِّجة» (la Jerarquía Eclesiástica): «إنَّ الصِّغار إذا نشؤوا على حياةٍ أسمى، سيعتادون على الحياة بقداسة ويكتسبون مناعة ضد كلِّ الأباطيل ويكونون محصَّنين ضد كلِّ نجاسة. لقد تنبَّهَ رؤساؤنا الإلهيون إلى ذلك واقتنعوا بصحّة استقبال الأطفال». ورغم أن دِيونيسيوس كان يتكلم هنا عن تقبّل الأطفال إلى العماد ليدخلوا في الديانة

المسيحية، فإن السبب المذكور هنا يصلح أيضًا لأُطروحتنا الحالية لأن الحالتين تستدعيان تربية الأطفال على الأمور التي عليهم أن يتّبعوها فيما بعد، لكي يعتادوا عليها.

لكننا مُتَقَصِّينَ الأمر أكثر إلى الوراء في الزمن، فإننا نجد السّند لرأينا يأتي من سلطة الرب نفسه. فإننا نقرأ في إنجيل القديس (متى ١٩/ ١٣-١٥) أنهم *«أَتَوْهُ بأطفالٍ ليضع يديه عليهم ويصلّي، فانتهرهم التلاميذ. أمَّا يسوع فقال: دَعوا الأطفال، لا تمنعوهم أن يأتوا إليّ، فإنَّ لأمثال هؤلاء ملكوت السماوات»*. ويعلّق القديس إيرونيموس قائلاً: «إنْ أبعدنا عن المسيح الطفولة البريئة، فمن الذين يُحسَب مستحِقًّا لأن يقترب من المسيح؟ إن كانوا قديسين، فلماذا نمنع الأبناء من الوصول إلى الآب؟ وإن كانوا خَطَأَةً، فلماذا تتلفظون بحكم إدانةٍ ضدهم قبل رؤية ذنبهم؟ إذا كان من الواضح أن طريق المشورات يقرّبنا جدًّا من المسيح، على حسب ما هو مكتوب في إنجيل القديس متى (٢١/١٩): *بِع كلَّ ما لَك وأَعطه لِلفقراء وتعالَ واتبعني*؟ إذًا لأيّ سبب يُمنع الأطفال من الاقتراب من المسيح من خلال اتّباع المشورات؟ فهناك كثيرون – كما يقول أوريجانوس في تعليقه على المقطع المذكور – يقومون، حتى قبل تكوين تمييزٍ واضح حول كيفية استخدام حقوق الأطفال، بانتقاد مَن يُكرّسون للمسيح أطفالاً وأشخاصًا لم يتلقُّوا تعليمًا كافيًا، ويعتبرون ذلك دليلاً على سذاجة عقيدة من يقبل ذلك التكريس. أمَّا الرَّبُّ، فإنه على العكس، يحثُّ تلاميذه – وقد كانوا رجالاً بالغين – على أن يكونوا متساهلين مع الأطفال، ويقول لهم أن يصيروا مثل الأطفال، وكذلك في تعاملهم معهم، وذلك لكي يكسبوهم: *«فإنّ لِمثل هؤلاء ملكوت السموات»*. هو نفسه، مع أنَّه الله، صار طفلاً. علينا إذًا أن نتذكَّر ذلك حتى لا نحتقر صغار الكنيسة، معتقدين أننا نمتلك حكمةً أكبر، ومفتخرين كعظماء، فنمنع الأطفال من أن يأتوا إلى يسوع.

إذا رجعنا قليلاً إلى الوراء، يمكننا أن نقرأ في إنجيل لوقا (٨٠/١) عن القديس يوحنا المعمدان: *وكان الطفل ينمو وتشتد روحه إلى يوم ظهور أمره لإسرائيل*. ويُعَلِّق القديس «بيدا» قائلاً: «إنَّ الواعِظ مستقبَلاً بالتوبة قضى شبابه في البرِّيَّة لكي يتمكَّن من تعليم تلاميذه بِحُرِّيَّة أكبر ومِن إبعادهم عَن أباطيل العالم؛ فكما يقول القديس غُرِغوريوس النِّيصي: لكي لا يحدث أن يعتاد على تلك المُغْرَيات الخادعة التي تدخل من خلال الحَواسّ، فلا يَقَعون في التباسٍ أو خطإٍ فيما يختصُّ بِالخير الحقيقي. ولذلك فإنَّه قد رُفِع إلى درجة عالية من النّعمة جَعَلته يفوق كل الأنبياء؛ وإذ قد عاش بِعِفَّة بدون شوكة الأهواء، استطاع بِذَلك أن يُطابِق رغباتِهِ بِمُخطَّطات الله، من البداية إلى النهاية».

كما نرى، فإنه ليس فقط مشروعًا بل مناسبًا جدًّا تَرْكُ العالم منذ الطفولة، لاستحقاق نِعَمٍ أكبر، والعَيْشُ في صحراء الحياة الرَّهبانية: *خَيْرٌ لِلرجل أن يحملَ النير في صباه* (مراثي ٢٧/٣). ويُحدِّد السَّبب في ذلك قائلاً: *لِيَجْلِسْ وحدَهُ ويسكت لأنَّه حَمَلَهُ على ذلك* . يجعلنا ذلك نفهم أنَّ الذين يحملون عليهم نير الحياة الرَّهبانية منذ حداثتهم، يجعلون أنفسهم أكثر مُلاءَمةً لاتِّباع الحياة الرَّهبانية التي تتمثَّل في الاستراحة مِن هموم العالم وفي الصَّمت بعيدًا عن صَخب الناس. *الطريقُ الذي يسلكه الفتى في البِداية، لن يَحيد عنه مَتَى شاخ*، يقول سفر الأمثال (٦/٢٢). لذلك يُشبِّه القديس أَنْسِلْمو، في كتاب «التَّماثُلات» (Las Semejanzas)، الذين عاشوا منذ طفولتهم في الدير، بِالملائكة؛ ومَنْ اهتدوا في مرحلة البلوغ، يُشَبِّهُم بِالرجال.

إلى جانب سلطة الكتب المقدسة، يمكننا أن نثبت أيضًا نَظَرِيّتنا بِواسطة تعليم الفلاسفة. فأرسطو في الكتاب الثاني لِلأخلاق يقول: «ليس نفسَ الشيء أنْ نَتَلَقَّى تربيةً مُعَيَّنَة منذ الصِّغَر، بِطريقة أو بِأخرى. فَالتربية في معظمها، أو تقريبًا كلها – أي بكاملها – تتمثَّل في جعل الرَّجل يعتاد منذ طفولته على ما سيتعَيَّن عليه أن يقومَ به

طَوال حياته». وفي كتاب «السياسة» الثَّامِن يقول: «من الضَّروري أن يهتمَّ المُشرِّع بتكوين الشَّباب الذين يجب تربيتُهم على تلك الأنشطة الملائمة لإمكانيات كلِّ واحد منهم».

دليل آخر: التَّصرُّف المعتاد بين البشر. فالبشر بالفعل يكونون مُوَجَّهين منذ صِغرهم نحو تلك المَهامّ أو الفنون التي سيتَّبِعونها طَوال حياتهم. مَن سيصيرون كهنة مثلاً يتربُّون منذ طفولتهم على الكهنوت. مَن سيصيرون جنودًا، من الضروري أن يتدرَّبوا على القتال منذ شبابهم، كما يقول فيخِنْسيو (Vegencio) في كتابه «عن فن العسكرية». ومَن سيصيرون أصحاب حِرَفٍ، عليهم أن يتعلَّموا مهنتهم منذ الطفولة. لماذا إذًا لا يجب أنْ تُتَّبَع تلك القاعدة بالذات فيما يتعلَّق بِالرهبان المستقبليين، مفترِضين إنهم ليس عليهم أن يتدرَّبوا على الحياة الرَّهبانية منذ طفولتهم؟ على العكس، من الضروري، إذا وُجِدَت مُهِمَّةٌ صعبةُ التنفيذ، أن يبدأ الإنسان في التدرب عليها في وقت مبكر منذ طفولته.

نتيجة واضحة: بالنسبة للأطفال، من الخطإ أن نصمّم على ضرورة ممارسة الوصايا قبل أن يعتنقوا المشورات بدخولهم في الحياة الرُّهبانية.

الفصل الرابع: في حالة المُهتدين حديثًا إلى الإيمان

المُهتدون حديثًا يكون لديهم في الحياة الرُّهبانية وسائل مُمتازة لِلمثابرة في النِّعمة، وعليهم أن يستغلوها بِأسرع فرصة. ذلك يتّضح في مثال القديسَيْن بولس ومَتّى. لِنَرَ إذا كانت حُجَّة معارضينا صالحة للتَّطبيق بالنسبة لِلمُهتدين حديثًا إلى الإيمان.

من النظرة الأولى، يظهر بلا معنى أن يُحرَموا مِن الحالة الرُّهبانية لأنَّهم لم يتدرَّبوا على الوصايا. لنتذكَّرْ بِالفعل أنّ تلاميذ المسيح، بِمُجرَّد اهتدائهم للإيمان صاروا مُلازمين له، كأول نموذجٍ على كمال المشورات، الذي تَفَوّق بدون أدنى شك على أيَّة حالة رُهبانية. والقديس بولس نفسه، آخرُ الرُّسل بالنسبة لتوبته وأوّلُهم بالنسبة لكرازته، اعتنق حياة الكمال الإنجيلي بِمُجَرَّد اهتدائه إلى الإيمان. وهو قد كتب لأهل غلاطية (١/١٥) قائلاً: *ولكن ما إنْ حَسُن لَدَى الله الذي أَفْرَدَني مُنْذ كُنْتُ في بطن أمّي ودعاني بِنعمته، أنْ يَكشف لي ابنه لأبشّر به بين الوثنيين، لم أستَشِر اللحمَ والدم.* دليل آخر: مثال المسيح نفسه. في إنجيل القدِّيس متى (٤/١) نقرأ أنَّ يسوعَ، بعد عماده، حُمل إلى البرِّيَّة بِالروح. ويوجد تعليق يقول: «حينئذ، ذلك ما حدث بعد العماد لكي يُعلِّم المُعَمَّدين أن يهربوا من العالم ويكرِّسوا أنفسهم لله في الوِحدة». دليل أخير: التصرُّف المحمود لِكثير من البشر الذي بِمُجرَّد اهتدائهم من العِصيان إلى المسيح، اعتنقوا في الحال الحياة الرُّهبانية. مَن ذا المُجادِل الذي يكون غير مُدَقِّقٍ بدرجة كافية، حتّى ينصحَهم بِعدم الدخول في الحياة الرهبانية حيث يكون من الممكن أن يحافظوا على النعمة التي تَلَقُّوها في العماد، ويدعوهم بِالعكس على البقاء في هذا العالم؟ مَن ذلك الرجل العاقل ذو الحُكم السَّليم الذي يمنعهم من أن يتسربلوا باقتداءٍ كاملٍ للمسيح بعد أن يكونوا قد لبسوه بِالفعل في سِرِّ المعمودية؟

النتيجة: أيضًا بالنسبة لِتلك الفِئة من الناس، يكون من السَّخَف منعُهم مِن الدخول إلى الحياة الرُّهبانية بِحِجَّة عدم تدرُّبهم على ممارسة الوصايا.

الفصل الخامس: في حالة الخطأة التائبين

بقدر ما كانت خطيئتُهم وجحودُهم كبيرَيْن، بالقدر نفسه يتعيَّن أن يكون التكفير عنها والكرم كبيرَيْن، لَدَى توبتهم. مِن أجل ذلك تعطيهم الحياة الرَّهبانية وسائل ممتازة، أكثر ضمانًا مِمّا يعطيهم العالم. لِنَرَ أخيرًا، في حالة تلك

الفئة الثالثة للأشخاص غير المُكَوَّنين فيما يختص بحفظ الوصايا، أيْ التائبين عن خطاياهم، هل ينطبق عليهم الإثبات العكسي.

هنا يَحْسُنُ ذِكر ما يقوله الإنجيل عَن توبة القديس مَتَّى، الذي دعاه الرَّبُّ لِيَتبعَهُ عندما كان جالِسًا على مائدة جِبايَة الضرائب. رغمَ أنه لم يكن قد قَبِلَ الرَّسوليّة بَعْدُ، إلاَّ أنَّه اعتنق مع ذلك كمال المشورات. بِالفعل نحن نقرأ في إنجيل لوقا (٢٨/٥) *أنَّه ترك كُلَّ شيءٍ وقام فتبِعَه*؛ ويقول القديس امبروزيوس مُعلِّقًا على ذلك المقطع: «ترك أغراضه الشخصية مَن كان مِن قَبْلُ يَسرق أشياء الآخرين». مما يؤكِّد بِكلِّ وضوحٍ أَنَّ الخُطاةَ التَّائِبين مهما عَظُمَت خطاياهم ، يمكنهم أن يَبدؤوا – بدون تأجيلٍ – طريق المشورات. بل أكثر مِن ذلك، ولكي نتكلَّم بِصراحة أكبر، يُمثِّلُ ذلك نَفعًا كبيرًا لهم لكي يصلوا إلى الكمال. وفي عِظَة له مُعلِقًّا على نصٍّ من إنجيل لوقا (٨/٣) *اصنعوا ثِمارًا تَليقُ بِالتوبة*، يقول القديس غْرِغوريوس: مَنْ لم يَرتكب أيَّ شيءٍ غيرَ قانونيٍّ، يُسمَح لَه عن حَقٍّ أن يَستخدمَ كُلَّ الأشياء القانونية. ولكنَّ من وَقَع في الخطيئة، عليه أن يتخلَّى حَتَّى عَن الأشياءِ القانونية بِقدر تَذَكُّرِه أنَّه قد ارتكب أشياءَ غير قانونية». ويستطرد بعد ذلك بقليل قائلاً: «إنَّ ذلك يكون بِمثابةِ تحذير لِضمير كلِّ فردٍ لِكي يعمل على استخدام التوبة كوسيلة لاستخراج فائدة أعظم من الأعمال الصالحة، بِقدر ما تسبَّب بِخطاياه في خطرٍ بالغ». وبالأكثر في الحالة الرُّهبانية، يمتنِع الناس أيضًا عن الأشياء المشروعة ويعملون على الاستفادة من الأعمال الكاملة. ثم إنَّه من الواضح أنَّ المُهتَدين، العائدين مِن الخطيئة، بما أنهم كانوا مُعتادين على نقض الوصايا وليس على اتِّباعها، فعليهم إذًا أن يَتَّخذوا طريق المشورات الإنجيلية، داخلين في الحياة الرَّهبانية، التي تُعْتَبر حالة كمال التوبة. يقول البابا إسطفان مُؤَنِّبًا رُجلاً يُدْعَى أسطولفو، كان قد ارتَكَبَ جرائم خطيرة: «انتبه لِنَصيحتنا: أُدْخُل في دَيْرٍ، ذِلَّ نفسَك تحت إِمْرَة الأباتي، اِستنِدْ إلى صلوات إخوة كثيرين واتَّبِع بِبساطةِ الرُّوح كلَّ ما تُؤْمَر به». ويقول له لاحِقًا: «ولكن إن كُنتَ تُفضِّل أن تصنع التوبة علانيةً ماكِثًا في بيتك أو في العالم – مما هو بلا شك أكثَر ضيقًا وقسوةً وتعبًا – فَاعلم أنَّنا قد نصحناك بما يَحسُن لك أن تفعله». ثم يضيف إلى ذلك عقوباتٍ قاسيةً جدًّا، ولكنَّه يُحذِّره بِأَنَّ الدخول في الرَّهبنة هو أَفْيَد مِن ذلك كلِّه.

ليس هناك من شَكٍّ إذًا في أنَّه – بالنسبة لِمن لم يُتَمِّموا الوصايا بل عاشوا من قبل في الخطيئة – من المفيد جدًّا أن يُنصَحُوا بالدخول في الرَّهبنة، على الرغم من اجتهاد مُدَّعِي الحكمة لِمَنْعِهم من اعتناق المشورات. ضد هؤلاء نَجد تعليم الرَّسول: *إنَّ تعبيري هذا بشريٌّ يُراعي ضعف طبيعتكم. فكما جعلتم مِن أعضائكم عبيدًا في خدمة الدعارة والفسق، وعاقبتها التَّمَرُّد على الله، فكذلك اجعلوا الآن منها عبيدًا في خدمة البر الذي يقود إلى القداسة* (رو ١٩/٦). «أَعَبِّر بطريقة بشرية»، يقول تعليق على ذلك: «لأنَّكم مُلزَمون بِالخضوع لِلبرِّ أكثر من الخطيئة». ويقول النبي باروخ (٢٨/٤): *وكما قصدتم أن تَشرُدوا عن الله، فإذا رجعتم إليه تزدادون التماسًا له عشرة أضعاف*، لأنَّنا بعد ابتعادنا عن الله بالخطيئة، علينا أن نَنزع إلى الأشياء الأكثر سُمُوًّا وألاَّ نكتفي بأواسط الأمور.

العديد من القديسين يؤيدون ذلك. كثيرون منهم من الجنسين، بعد ارتكابهم خطايا وجرائم خطيرة ، أفنوا فيها حياتهم، اِعتنقوا في الحال طريق المشورات دون أن ينتظروا التدرُّب المُسْبَق على الوصايا.

إلى جانب سلطة ومِثال القديسين، فإنَّ كتابات الفلاسفة هي في صفِّنا أيضًا. بِالفعل يقول أرسطو في كتابه الثاني عن الأخلاق: «إننا بابتعادنا تمامًا عن الخطيئة، يتعيَّن علينا أن نختار الوسيلة الصحيحة كما يُفعَل لِتقويم الشجرة المُعوَجَّة». يجب العودة إلى الطريق القويم بواسطة ممارسة أعمال الفضيلة الكاملة.

وبالتالي، لا ينطبق التعليم المعاكس على أيَّة فِئة من الناس، أي التعليم القائل بأنَّه لا يمكن لأَحدٍ أن يدخل في الرَّهبنة قبل أن يكون قد تَدَرَّب على ممارسة الوصايا.

الفصل السادس: العلاقة بين المشورات والوصايا

(يقول خُصومُنا): *إن الوصايا الخاصة بالمحبة – نحو الله ونحو القريب – هي الغاية المُلزِمة لِلجميع. سيصل إليها البعض مُتمِّمين الوصايا التي تشير إلى هذه المحبة، والبعض الآخر، على العكس، سيصلون إليها بطريقة أسرع وأكمل مُتمِّمين أيضًا المشورات الإنجيلية في الحياة الرَّهبانية، مستخدمين تلك المشورات كوسيلة أكثر أَمْنًا. وبالتالي يستطيع الأطفال والخطاة والمهتدون حديثًا الدخولَ إلى الحياة الرهبانية ليبدؤوا فيها تتميمًا أكثر أمنًا وكمالاً لتلك الوصايا السابق ذكرها.*

لكي نستأصل ذلك الخطأ من جذوره، فلنبحث عن جُذوره أيْ أصلِهِ. إنَّه ينبع – على ما يبدو لنا – من الاعتقاد بِأن الكمال يتمثَّل بِصفة رئيسية في المشورات، وأنَّ الوصايا تأتي بعد المشورات في الترتيب، كغير الكامل بِالنسبة لِلكامل. لو كان الأمر كذلك، لكان من الواضح أنَّه يجب المرور مِن الوصايا إلى المشورات، كَمَن يصل إلى الشيء الكامل مرورًا بِغير الكامِل. إن تطبيق ذلك فيما يختص بالوصايا لَهو من سبيل الوقوع في خطإٍ.

أ) المحبة هي غاية الحياة المسيحية

إن الوصايا الرئيسية هي حب الله وحب القريب، كما هو مؤكَّد بالنسبة لنا مِمّا يقوله الرَّب في إنجيل متى (٣٧/٢٢)، عن أن الوصية الرئيسية في الشريعة هي: *ستحب الرَّبَّ إِلَهك مِن كلِّ قلبك، والثانية تشبهها: ستحب قريبَك كنفسك*. هاتان الوصيتان تمثِّلان، بِصفة أساسية، كمال الحياة المسيحية. *اِلبسوا فوقَ ذلك كله المحبة، فإنَّها رباط الكمال*، يقول القديس بولس (كول ١٤/٣). هناك تعليق يشرح ذلك قائلاً: إنَّ جميع الفضائل الأخرى تُصيِّر الإنسان كاملاً بِقدر ما تتوجَّه نحو المحبة؛ كما أنَّ المحبة تربط بينها جميعًا. لذلك فإنَّ الرَّبَّ عند إعطائه وصية المحبة نحو القريب، قد أضاف: *فكونوا أنتم كاملين كما أنَّ أباكم السَّماوي هو كامل* (متى ٤٨/٥). كما أنَّ القديس جيرونيموس يقول مُعلِّقًا على إنجيل متى: (٢٧/١٩) *ها قد تركنا نحن كلَّ شيءٍ وتبعناك*، يقول «لا يكفي كونهم قد تركوا كلَّ الأشياء؛ فهو يضيف ما هو كامل: *وتبعناك*. لقد كان الرُّسل يتبعون المسيح، ليس بِخطوات الجسد بل بالأكثر بِمشاعر النفس. وهذا ما يقوله القديس أمبروزيوس مُعلِّقًا على إنجيل لوقا (٢٧/٥): *وقال له: اِتبعني*، يقول أمبروزيوس: لقد أَمَرَه أن يتبعه، ليس فقط بِحركة الجسد، بل بِالأكثر بِمشاعر النفس». كل ما ذُكِر يثبت لنا، بِكلِّ وضوحٍ، أنَّ كمال الحياة المسيحية يتمثَّل، بصفة رئيسية، في انطلاقة المحبة نحو الله.

إنَّ بلوغَ الهدف يُمثِّل كمال الشيء. وَغاية الحياة المسيحية هي المحبَّة، التي لا بُدّ أن يتوجَّه إليها كلُّ شيء، كما نقرأ في الرِّسالة إلى تيموثاوس (الأولى ٥/١): *وما غاية هذه الوصية إلاَّ المحبة؛* ويشرح تعليقٌ قائلاً: «المحبة هي الغاية، أيْ الكمال؛ غايةُ *الوصية*، أيْ كل الوصايا، وتتميمُها هو حبُّ الله وحبُّ القريب».

من الضروري أن نُنَبِّهَ إلى أنه يتعيَّن الحكم بطريقة مختلفة حول الغاية نفسها وحول الوسائل التي تقود إليها. فيما يتعلَّق بِالوسائل التي تقود لِلغاية، علينا أن نتَّخِذ مقياسًا مُعَيَّنًا يتوافق مع الغاية. ولكن بالنسبة لِلغاية نفسها، ليس هناك أيُّ مقياسٍ، إنَّما يصل كلُّ واحد كيفما استطاع. فالطبيب، مثلاً، يستخدم الدواء بِاعتدال لكي لا

يُبالغ فيه، ولكنه يعمل على شفاء المريض بِأكمل طريقة ممكنة. هكذا أيضًا بِالنسبة لِوصية محبة الله: بما أنها الغاية النهائية، فليس لها أيُّ حدٍّ، بحيث لا يمكن القول بأنَّ: «هذا» القَدْر الحب لله يقع في إطار الوصية، والحبّ الأكبر من ذلك يفوق إذًا حدود الوصية ويقع في إطار المشورة؛ إنَّما يُوَصَّى كلُّ واحدٍ بِأن يحبَّ الله على قدر ما يستطيع، كما نرى في نصِّ الوصية نفسها: *ستحب الرَّبَّ إلهَك مِن كل قلبك*، ويمارسِها كلُّ واحدٍ على قدر طاقته: البعض بكمالٍ أكثر، الآخرون بِكمالٍ أقلّ. يكون مُقَصِّرًا تمامًا تجاه تلك الوصية من لا يفضِّل، بمحبته، الله على جميع الأشياء. وفي المقابِل، فإنَّ الذي يُفضِّل الله كغاية نهائية، تاركًا جانبًا جميع الأشياء، فذاك يُتمِّم تلك الوصية، بطريقة أكثر أو أقل كمالاً بحسب قدر التصاقِهِ – قليلاً أو كثيرًا– بالأشياء؛ وذلك بحسب ما يقوله القديس أغسطينوس في كتابه«المَسائل الـ٨٣»: «السُّمُّ لِلمحبة هو الأمل في اكتساب وتملُّك خيرات زمنية (**تمّت المراجعة الدّقيقة إلى هنا- ٥-١-٢٠١٠**)– أي انتظارها كما